

مالك حداد

الشقاء في خطر

شعر

ترجمته عن الفرنسية ملك أبيض العيسى
راجعته وقدم له سليمان العيسى
الطبعة الأولى، 1961
مكتب الشرق بحلب

العنوان بالفرنسية
Le Malheur en Danger

المجموعة الشعرية التي غيرت وجهة الشعر الفلسطيني

وأنا أعيد مراجعة هذه المجموعة الشعرية، لاحظتُ أن المترجمة والمراجع لم يهتما كثيراً بنقل الإيقاع الشعري الثري في لغة القصائد الأصلية، فاستخدما عبارات وألفاظاً غير موجودة في النص الأصلي، ربما لجعلها مفهومة في اللغة العربية، وربما بسبب جدة مثل هذا الشعر الذي لا يجري مجرى الشعر العربي في تركيب الجملة الشعرية أو التقطيع أو توزيع السطور أو روابط الكلمات، فأكثرنا من إدخال حروف ربط وتعليل وزوائد لا توجد في الأصل. لهذه الأسباب قمت بتعديل بعض السطور، وحاولتُ الإبقاء على النبضة الشعرية في إيقاع النص الأصلي.

وأود هنا وأنا أعيد كتابة هذا الكتاب الكترونياً أن أشير إلى أن مجموعة مالك حداد هذه هي التي تقف في الحقيقة وراء قفزة شاعر مثل محمود درويش "المدهشة" بتعبير غسان كنفاني، من مجموعته الركيكة "عصافير بلا أجنحة" إلى مجموعته "آخر الليل نهار" (الأدب البيروتي، مارس، 1969). وكان الشاعر والناقد والروائي الفلسطيني الكبير محمد الأسعد قد نوه بهذا منذ سبعينات القرن الماضي في مقالة متواضعة في صحيفة "الوطن" الكويتية، وأورد "تلاصقا" نصيا حرفيا بين المجموعتين في سطور عديدة وبضعة قصائد بالإضافة إلى تقانة التخييل والتصوير. كان الأمر سطوا من قبل محمود درويش في الحقيقة على قصائد مالك حداد. لم يقل الأسعد هذا، ربما خشية من سطوة إرهاب كان يهيمن على الساحة الفلسطينية في تلك الأيام، واكتفى باستخدام الواقعة ليدلل على أن من النزاهة نقدياً أن نعرف المنابع التي يستقي منها الشعراء حتى وإن تنكروا لهذه المنابع. ولم يكن درويش وحده في نقل هذا الإيقاع الثوري الجزائري إلى الشعر الفلسطيني، من دون أن يرجع الفضل لصاحبه، بل شاركه في ذلك سميح القاسم، ومن بعدهما شاعت لغة مالك حداد في تضاريس الشعر الفلسطيني من دون أن يعرف أحد مصدرها، فنسبوا لمن انتحلها في الحقيقة. بل وبدأ هذان المنتحلان بإشاعة أن جمهرة واسعة من الشعراء الفلسطينيين "تقلدهما" و"تحاكيهما" و"تسطو" على روائعهما !

لقد غيرت مجموعة مالك حداد وجهة الشعر الفلسطيني بالفعل، ولم يكن سبب التغيير كما قال غسان كنفاني بسذاجة "الماركسية والصوفية"، فهذان العنصران وحدهما لا يصنعان الشعر. إن الذي غير الوجهة هو الصوت الجزائري المقاوم المتميز الذي تردد في القصائد الفلسطينية وأعطاهها مذهباً جديداً. ونبه الفلسطينيين إلى أن هناك صوتاً مختلفاً مقاوماً، حتى وإن لم يعرفوا مصدره الأصلي، يختلف عن بكائيات شعراء الخمسينات وشعر الحنين الرومانسي. وهذه صفحة جديدة في تاريخ هذا الشعر نأمل أن نكتبها بما لدينا من أدلة في مقبل الأيام.

لعل الكثيرين سيدهشهم كشف من هذا النوع، وربما سيندهشون أكثر لو عرفوا أن هؤلاء الشعراء الذين زعموا، أو زعمت لهم الصحف في الستينات والسبعينات، أنهم شعراء "مقاومة" و "قول شعري" جبّ ما قبله وما بعده، إنما كانوا منتحلين استعاروا بلا خجل حتى تعابير قالها مالك حداد في لقاءاته الصحفية، وتستروا على مصدر صورهم "وكشوفاتهم"، ومضوا حتى إلى إنكار أنهم قرأوا مالك حداد، أو سمعوا باسمه!

ما أود قوله وما أرمي إليه، أن أي دراسة للشعر لاتستقيم إلا بنهج يأخذ في اعتباره مسألة منابع الشعراء التي يستقون منها، ولا يجب أن ننخدع بقول بعضهم أنه "لايشرب من حبر الآخرين ولايستعير أصابعهم" كما زعم نزار قباني الذي سطأ على أكثر من شاعر فرنسي وعربي، فمعرفة الشاعر بأسلافه ومجايليه ليست سبة ولا هي عار، بل يجب أن تكون مصدر اعتزاز. أما التنكر للمنايع فلا يصدر إلا عن نزعة "تجار" و "لصوص" لا مثقفين وشعراء. وكان هؤلاء لصوصا بالفعل، تاجروا بشعر المقاومين الحقيقيين، ثم انتقلوا للمتاجرة ببضاعة أخرى بعد حين، حتى وصلوا إلى الحضور في "ساحة رابين" لإلقاء أشعارهم كما فعل سميح القاسم منذ وقت قريب في ذكرى اغتيال هذا الصهيوني المجرم.

لماذا هذه القصائد الآن؟

إنني أعيد نشر هذه المجموعة الشعرية، بمقدمتها الفذة الواعية، وقصائدها التي تلمس شغاف القلب، لأذكر فقط كل شاعر فلسطيني أن الهالة التي ألصقها شعراء بلاط من أمثال سميح القاسم ومحمود درويش بأنفسهم، بعد أن تسلقوا قضية شعب يباد ويذبح منذ أكثر من ستين عاماً، يجب أن نضع لها حداً، ولفت النظر إلى أنهم استخدموها للترويج لأطروحات التسليم للعدو بما أغتصبه. وأن المفاهيم التي نشرها هؤلاء حول طبيعة العدو المستعمر "الإنسانية" ووظيفة المثقف في خدمة تسليم شعب لجزاريه، مستغلين سطوة أجهزة وإرهاب أموال ورصاص سماسرة أوسلو، يجب فضحها. يجب فضح تاريخ من العهر السياسي مارسه هؤلاء باسم "شعر المقاومة" الذي انتحلوه، وفرضوا عهرهم على الساحة الثقافية الفلسطينية، فأصبحوا صوت الشعب زيفاً ودجلاً، وشوهوا شعر المقاومة الحقيقي، مقاومة الفلسطيني المشرّد، واستبدلوا به شعر تمجيد رؤوس فساد وإفساد ثورة شعب لم يتوقف يوماً عن التضحية في حين لم يتوقف هؤلاء وأمثالهم عن المتاجرة بتضحياته وصولاً إلى المقيّل في أحضان العدو الصهيوني والتجند لحماية مستعمراته قولاً وفعلاً.

كان هؤلاء "قبرات سرقت القمح، واستفادت من أزمة سكن لتزرع أغانيها في أخاديد لم تحفرها هي" إذا استعرنا كلمات مالك حداد.

لقد مجد هذا النمط من الشعراء، الذين صادروا وقمعوا الصوت الفلسطيني، الاستبداد والمستبدين وعززوا سطوتهم على الشأن الفلسطيني. لقد باعوا أرواحهم للطغاة، في مقابل ما وفّرتهم لهم أجهزة المستبدين من إمكانيات لتسويق أنفسهم عربياً وعالمياً، ومضوا إلى أبعد من ذلك، بعد أن وصلوا إلى سن اليأس، فجعلوا العدو "إنساناً" والمقاوم إرهابياً (أفغى بتعبير محمود درويش)، والخيانة "مشروعاً وطنياً". ثم انصرفوا إلى التغني بنزواتهم، فهذا يريد الوصول إلى "نوبل" وذاك إلى جائزة "دولة إسرائيل"، وهكذا.

لقد تسلقوا عربات هذا الشعب الثقافية والسياسية والاجتماعية، وبعد الاستيلاء عليها بدأوا بدفعها إلى هاوية الاستسلام واغتيال الذاكرة الفلسطينية، فهل يستيقظ الشاعر والمثقف والسياسي الفلسطيني، وهل يستيقظ الفلسطيني الذي استغفله ومنعوه من سماع أصوات شعرائه الحقيقيين؟ هل يستيقظ وينبذ هؤلاء المندسين؟ وما معهم من نطائح ومرتديات؟ هل سيتعرف على صوت عذباته لدى شعرائه الذين حاربهم بلاط الاستبداد بكل الوسائل؟

أصغوا إلى صوت مالك حداد، هذا الصوت النقي، واسألوا أنفسكم، أين كنا وأين أصبحنا؟ أصغوا إليه لتعرفوا الفرق بين الشعراء الأنقياء ولصوص الشعر.

خالد سعيد

مقدمة الشاعر

إلى صديقي الشاعر الجزائري

لست جزائرياً فحسب،
وحتى تكون أشد تضامنا مع نفسك ومع الآخرين،
لا تبالغ إلا في قلة اكراتك

يقيني أنك تتساءل عما إذا كانت قصيدتك جديرة بأن تكون أغنية عنيفة بالغة القوة
هذا ليس مهماً
المهم يكمن في حالتك الشعورية، موقفك
أنت سلمت معي أن لاتنافر بين القلم والأغنية العنيفة
وأنت تركت التاريخ يدفعك، يسيرك، في الوقت الذي تحسّ فيه أنك مدعو إلى تسيير التاريخ
هذا حق لك لاينازعك فيه أحد
أنت تتألم في صميمك حين ترى الأشجار تُقطع أغصانها لتصنع منها كعوب للبنادق
لا شيء أجمل من السلم
ولكن.. لكي يصبح التاريخ قصصَ بطولة، لكي يصنع كل إنسان تاريخه بيديه، علينا أن نختار بين
المقيل الهاديء تحت جذع شجرة وبين انفجار أغنية عنيفة
لكلمتي الوظيفة والواجب معنى واحد في التشريح العجيب للمفردات
نقول، علينا واجبات لننجزها، ولدينا وظائف لنملاها
لم تكن الأشجار تواقفة في أي يوم من الأيام لتنتهي إلى أن تكون كعوب بنادق، ولم تمل الأقبية في أي
يوم من الأيام إلى أن تكون مخازن بارود لتدمير الحياة
يبدو أن الأشياء لا تعطى دائماً الوظيفة التي تستحقها.

أيها الشاعر، يا صديقي !
لنجعل القلب ذكياً، ولنمنح قلباً للذكاء
أريد براكين مفكّرة، لأن الإندفاع الأهوج صلع الفكر والفاعلية السليمة
أنت تغمس قلمك في السواقي الكدرة، السواقي التي تحمل جسد الأفاعي المنتفخ عدوة المياه النقية
المغردة

محبرتك هي النبع، هي الإنسان كله
وفي آخر معجم، في آخر سفر من أسفار الأدب،
ستتحول كلمة "بطل" إلى كلمة "إنسان"
أعرف قلمك كما أعرف أولادي وطيبتنا
أعرف قلمك كما أعرف القدر الذي لائمه
أعرفه كما أعرف اصدقاءنا، ومياه نهر الرومل ذات النشيج البربري الساخن

أعرف كاتب ياسين وثروته التاريخية
أعرف كاتب ياسين وهو يجدد معرفته بالحياة في "جثة" لم يطوقها سوى الأغبياء
أعرف إرادة محمد ديب الطيبة هذه، الطيبة كدرس ممتع
أعرف رولان دوكان الذي تخطى حلمه آمالنا حين قال:
"طالما حلمتُ بوطن شاعر"
أعرف كراز وأغانيه الواعدة
أعرف محمد العيد الذي ذاق مرارة السجون، وعرف ظلام الأقبية، لأنه ارتفع الى مستوى اللغة
الغاضبة، وجاك سيناك المحتشد بالموهبة والوساوس
ذاك الذي سما به إخلاصه لوطنه الجزائري فوق بهلوانيات اللغة
أعرف كل هؤلاء، بداية ومتحضرين، بالمعطف والجلباب، إنهم حاضرون جميعاً وكأنني بهم يعلنون:
"كلنا على استعداد"
أيها الشاعر يا صديقي
سيكون قلمك قطرة من الروعة دائماً.

* * *

التاريخ غاص بصلصلة القيود، إنه يولد في الحديد
كل ما حولنا يصدمنا، يثير فينا الألم والمرارة
لقد حوّلت الهندسة إلى حساب للزاوية القاتلة في ارتفاع بندقية قبيحة
وواضح أنني لأستنتج شيئاً من ذلك
بودي الإدلاء باعتراف رهيب؛
حينما كنت طفلاً، كانت نزهتي الأثيرة حين يتاح لي أن أركب القطار
ما أجمل أن يركب الطفل قطاراً!
لكم استمتعتُ برؤية أعمدة البرق السامقة حين كنت ألصق وجهي بالزجاج!
لم يكن يخطر لي آنذاك أن هذه الأعمدة ستقطع ذات يوم
واليوم، أيها الصديق
عليك أن ترى أبعد من طرف أنفك، أبعد من واجهة المخازن التي لم تدخلها،
أبعد من الأعمدة التي تجعل السنونو يتراقص كلما سار القطار
كلما سار القطار
هذه هي المرحلة الجديدة بالتقدير
اليوم ترى أبعد من طرف بندقيتك، تمدّ بصرك إلى أبعد من طرف قلمك
يجب أن تسير يا صديقي لتجعل وجودك أغنى وأخصب
أراغون داعب غرورك حين امتدحك بقوله:
"أنت طائر من طيور الأغصان العليا"
فإذا احمرّ وجهك، من المؤكد أن هذا لن يكون احمرار الكبرياء
مايكوفسكي هو من وضع يده على السرّ
هو من أدرك الحقيقة
ولكنه كان وحيداً مثل جندي حراسة، وحيداً كتحذير
كان وحيداً منتصباً، مفاجئاً، منتصباً، يحزّ القلب مرآه

كان فضفاضاً مثل حاشية ثوب سابغ
ألصق أنفه بزجاج النهار
أترانا نعلم ذات يوم لماذا تحطم ذلك الزجاج؟
فنتساءل حينئذ: العدو.. ماهو العدو إذن؟
العدو رجل له ذراعان وساقان مثلك
ولكنه لا يؤمن بالربيع إلا إذا وجده مسجلاً في التقويم
كلية الإنسان هذه تتجسد في علم، في برتقالة، في خريف دافيء
كصدر امرأة حبيبة، في كل شبان العالم الذين يمدون إليك أيديهم حين تتحرر من شللها
كلية العالم هذه ستصل إليها حينما تنقب جميع زوايا شقائك
تجول في الصحراء، افتح صحراءك على الحياة
إصنع منها خلقاً كوردة في الرمال
إصنع منها ما يمكن أن يكون خلقاً ووردة
إنك لتبدو نافذ الصبر، كئيباً، سيئاً
سيناتك الواعية هي خير قدراتك لأنك لم تصبح الآله الرحيم بعد
وحين تكون نقبت جميع زوايا بؤسك وسيئاتك
ستذكر الصيادلة، هؤلاء الرجال المساكين الأمجاد الباهتين، الذين لارسالة لهم
سوى توزيع اللصقات الناجعة
كن صيدلياً،
ليقتلك الضجر خلف زجاجات الدواء
هؤلاء الرجال المساكين.. ما أصغر مطامحهم! ما أقل مطالبهم!
لذلك يجب الانتقام لهم
إجعل منهم سواقي وبحيرات وأنهاراً
إعبث بنجوم المجرة
كن بسيطاً ولطيفاً؛ إن أقصر الطرق بين نقطتين ليس بالضرورة الخط المستقيم
حين يذهب جندي للقتال، لا يجد ما يدعوه للنشيد
إحترم الأزهار، لاتضعها في بندقيتك
وإذا ألحت عليك قيلولة مابعد ظهيرة شديدة القبط،
أرجوك أن تغفو في سفح جبل معطى بالبنفسج.

* * *

"خطرة هذه المهنة، مهنة الشاعر
يفقد فيها الريش، ولكنه يصنع الأغاني"
ذلك ما قاله لي بلبلٌ أعذب غناءً مني
هذا البلبل، ما أن يتحدث عن الحرية حتى يحمل جناحي عقاب
حتى يصبح عربة منقذة
حتى يصبح رياً للأرض، للأرض العطشى
هذا البلبل يسمى قمحاً، قمحاً، قمحاً
لاتكن القبرة، سارقة القمح، القبرة التي تفيد من أزمة سكن لتزرع أغانيها في أخاديد لم تحفرها هي

أنتَ تقرأ الخطوط في كف العالم
أنتَ تهدر كقاطرة، وأنتَ خجولٌ خجلَ حب أول
ستضرب الأرض بأقدام جندي
وليسألوكَ عما تفعل
ستجيبهم، ذلك من شأني وحدي
بعثر سبائكك في كل مكان، مزقها قطعة قطعة
إنها الطريقة المثلى لتجد طريقك من جديد
ثم دعهم يقولون،
ولكن ماذا تراك فاعلا بدوار الحب؟
ماذا تفعل بأزهار أيار؟
أتراها قطعاً من قوس قزح ترسمها أناشيد الحب في سن العشرين؟
دعهم يهذرون..
لاترفع صوتك، وتكلم صادقاً، سواء سمعوك أم لم يسمعوك،
تمثالك سيصنعه لك الآخرون
تذكر ماياكوفسكي إذ يقول:
" لاكثرث كثيراً بمعطف من البرونز "
أه.. ما أذ المجد تصنعه الأغاني التي لايعرف قائلها!
سأخلع عليك اسماً جديداً، سأسميك فن الشعب، روحه المتجسدة، فأنتَ أكبر من بلدك،
أنتَ أكبر من قارة.. أسمعني جيداً؟
أنتَ الإنسان
اربط قدميك بتراب الجزائر، التصق به، انتعله
قدماك، قدما الجندي، قدما الشاعر الجوال، وجدا قلوبهما أخيراً
سر، يجب أن تسير، أن تسير،
السير هو طريقك في الانتظار، في ارتقاب الأحداث
دع غيرك ينتظر قبره وهو جامد كالموت
أنتَ تكتب لأنك تحب، وإذا لم يكن لديك ماتحبه، ارم قلمك جانباً
بأقدامك، أقدام الجندي، أقدام الشاعر الجوال، ستخط طرقاً جديدة، ستخط دروباً معطرة بالأساطير،
مزروعة بالحلزون
إقفل المذيع ، لاتفتح رسائلك، انظر إلى أمك
أليست لديك رغبة في تقبيل أمك؟
إن خدها ليبدو شيئاً مروعاً
لقد تجرأ همجي من أكلة لحوم البشر على أن يجعل من الخد الجميل متكاً لبندقية في عملية تسديد قاتلة
إنك ربان طائرة تطير بطريقتك الخاصة، بأسلوبك الفريد، إنني أحذرك، لن تكون لك محطات
استراحة تلتقط فيها أنفاسك، ستطير حتى ساعة وصيتك، ولن تكثرث لذلك، لأنك شاعر
هذا ما أريد منك أن تصرخ به ملء فمك، أن تعوي به حتى يصبح حقيقة حياة
لن يكون على جدار غرفتك لوحة تشير إلى الكلية التي تخرجت منها، ومع ذلك فأنت خير من حاملي
الشهادات
أنت صفة، أنت إنسان
صنعت إنسانيتك بنفسك
أنتَ هذا الاستباق الرائع لزمن

أنت الذي ستصنع البشر..
هذا النجار الذي لا يملك إلا أن يكون نجاراً، ستحوّله إلى شاعر، وهذا الجراح الذي لا يستطيع أن يكون إلا جراحاً سيصبح شاعراً، والزبال، حتى الزبال الذي هو ليس سوى منظف للشوارع، سيصبح شاعراً أيضاً
أنت هذا النور الذي ينساب إلينا من النجوم بعد قرون من السفر
ستحاول في هذه الآونة أن تكون جديراً بالذرى
وهناك في الأعالي، سيصبح قلمك الضئيل شيئاً خارقاً للعادة
ستدأب مقبض مهمازك بالإحترام نفسه، واللامبالاة نفسها، اللذين تحملهما لبغي مريحة نافعة
كان أراغون يقول: "اصمتوا الآن، اصمتوا لأصغي إلى قلبي"
أما أنت، فإنك تصدح بالغناء الحقيقي. احترس جيداً، يجب أن تكون بمستوى البشر
أيها الشاعر، يا صديقي
أرجوك ألا تغتبط غبطة المنتصر الذي يحتقر انتصاره
أنت قاتلت من أجل العصافير
لتكن لك حركات ربان الطائرة الدقيقة، لاحتركات الصيادين المخاتلة الثقيلة
وازن جيداً بين الحب وبين غريزة البقاء فيك
يجب أن تكون جميلاً
أنت تصرف، أول ما تصرف، فعل "عَمِلَ"
أنا أحذرك على الفور، تذكر أنك لست مغامراً
قم بواجبك، تلك هي مهمتك
ولنبداً تحليل هذا يا صديقي. ما أكثر واجباتك وأعباءك حتى تبلغ مبلغ تلك الجنيات الساحرات اللواتي
أصبحن أوكسجين وهيدروجين
يجب أن تقدم حساباً للماء. أنت تعرف ما أريد
هناك ماء في الإبريق وماء في الكوب،
لاماء الإبريق أعني ولا ماء الكوب
بل الماء في مقره، في المنبع.
إنهل من المنبع، لاتغرق أبداً، ستجعلك الحمى تعرف بلادة الغرق. إشرب على الجبل
ليس للدم مذاق سائغ
إنني لأوثر الندى
ولكن هذا لا يجعلك تتجنب الجبل. أنت ربان طائرة، تعرف هذا جيداً. وجود السحب هو باعث صعود
الجبل، هذه السحب الكثيفة المزجة التي تبدو تجاعيدها كجبين كئيب أحياناً
علينا نزرع القناع عن أعيننا. أنا مقتنع بوجود الماء بمعزل عن الأوكسجين والهيدروجين
لقنونا في المدرسة.. التويج، الوريقات، الكأس، أما أنا فأجيبهم: زعتر
إنني أحن إلى الزعتر
لم أر زعتر أبداً، لذلك أهزّ كتفيّ، كتفيّ الثابتين فوق ظهري، وأمضي في طريق الحياة، وعلى
أطراف أصابعي .. زعتر.
أنا الذي أغني بالفرنسية، أيها الشاعر يا صديقي،
لاتلمني إذا صدمتك رطانتني، أراد لي الاستعمار أن أحمل اللكنة في لساني، أن أكون معقود اللسان.

* * *

على جبلنا سيخيم الحزن، إلا أنه سيكون جميلاً في كآبته. هذا الحزن لامفرّ منه، إنه فريضة لابد أن تؤدى.

ستترك بقعا كثيرة على دفتركَ المدرسي، ستنتقي الكلمات التي تخطها يدك
إبدأ بـ "غلمة" و "جرجرة"، ولا عليك أن تكتب بعدها ماتشاء.. "سيئول" مثلاً أو "أورادور" أو
"فركور" أو "أوكرانيا".

تلك هي دروسك، ستمر بها درساً درساً حتى تصل إلى هذا الحرش الذي يروقه أن ينقل إليّ لهبه
عندما أكون شاهداً للغابات التي يجب الانتقام لها
فلينهض، ليقف على قدميه من أصبح يعرف أن الإنسان هو الذي يختار طريقه، وأن عليه أن ينمو،
أن يكبر دائماً

ستقول: مالكُ هذا يستخدم كلمات فرنسية
ما أهمية ذلك؟

يمكن أن تقال كلمة الجزائر باللغة الصينية
بلى يا أراغون، تلك هي مأساة اللغة،
لو كنتُ أعرف الغناء، لغنيت بالعربية.

* * *

لم يكن للعسل ذنبٌ في يوم من الأيام. أنا لأحب فلسفة النحل النفعية. أنا مع الزهور، الزهور جميعها
أترابي. أعرفها يا إلهي ! أعرف أسماءها، من زعفران الحقول إلى شوك الدواب الأسوء من قلب
رأسمالي.

ها أنا أنفث الحقد، نعم، أنا أنفث الحقد،
رغم أنني كتبت يوماً:

"الحقد يصدمني

ينقرني كالإبتدال

أنا عاشق قبل كل شيء

نعم أنا أنضح بالحقد، ولكن حقدي عاقل كوجبة طعام ضرورية. ولتطمئن يا صديقي؛ ليست لدي شهية
للطعام، شهيتي قليلة أيها السادة

ستحاول أن تكون جديراً بالذرى، أنا أدعوك إلى أن تحاول، أن تعلن ميلاد أغنيّتك الخارق
انت لست ضد الفرنسيين، يجب أن لاتكون ضدهم، بل أنت لاتستطيع أن تكون ضدهم
أتعلم لماذا؟ إسمع إذن..

رأيت هذا المساء كهلاً يعمل في دكانه حتى ساعة متأخرة من الليل

كان صديقي الإسكافي المجهد يمضغ قطعة جبن وهو يفصل الجلد. كانت له أصابع ثقيلة، واثقة،
قادرة على أن تشدّ على يدك بحرارة، قادرة على نسج إكليل من الزهور في عيد الأول من أيار،
قادرة كل القدرة على صفع رجل فظ شرير..

لاتنسَ هذا الكهل المجهد الذي كان يمضغ قطعة جبن. لقد همس في أذني: "لن أصنع أحذية عسكرية
أبدأ"

كان ابنه قد سبق للتو إلى الجزائر ليشارك في حرب لم يعلنها هو

فرنسا هي هذا الكهل الذي يكدح في دكانه حتى ساعة متأخرة من الليل. هذا الكهل يمكن أن يكون ابن عم "دسنوس" أو "إيلوار" فرنسا ليست عدوك وإذا ما فهم التاريخ على هذا النحو، لن تكون هناك تصفية حسابات.

* * *

للمراكب في بعض الأحيان ارتجافات غريبة
لاتفضح فرنسا في أغانيك، ولكن إفصح الذين لم يحترموا مواطنهم الكهل الذي يمكن أن يكون ابن عم لدسنوس أو إيلوار
وحين تبلغ الذرى، حين تصبح جديراً بها، ستصبح يداك نظيفتين
من الغضب لايمكن أن ينطلق فرح
أية أغنية لاتستطيع الصمود أمام سهل تحول إلى ساحة حرب
وإذا نُسفت الجسور أيها الصديق الآن، فذلك لأننا نضطر إلى رفض مصافحة بعض الأيدي أحياناً
وإذا لم تبصر ارتفاع أعمدة البرق الشاهق، وإذا رأيت شجر البرتقال يغفو، أيها الشاعر يا صديقي،
فهذا المرض العصبي عرضي لا بد منه، مرض فُرض علينا فرضاً.
ما زالت ترن في سمعي كلمات الرجل المنادي في باريس:
"إنسفوا.. إنسفوا الجسور
لنرقص أخيراً"
وكان يضيف على الفور:
"إصغ إليّ من زوايا العالم الأربع
إصغ إليّ.. فأنا أناديك"
كان ينادي السلام

* * *

إنني أؤثر الثلج، لقد لطحه المسوخ بالأوساخ، لقد سرقوا منا كل شيء.
أنا على يقين من أن الخطبة التي تئن حين تحترق في مدافننا، تروي غضب الأشجار التي حُولت إلى
كعوب للبنادق، ومقابض للسيّاط
حتى الرعد، حتى الرعد، لو قيل له يوماً أن روزنبرغ تحول بالكهرباء إلى كومة فحم صغيرة لصاح
بملء فمه:
شيء مقرف .. لكم أستخدمت استخداماً سيئاً"
أنا أعرف حزن السواقي، السواقي العذبة التي تُستبدل فيها سمكة شوبرت بالفحم الأبيض
يا للسواقي التي حُولت أغانيها وأسمائها الناعمة إلى فحم أبيض!

* * *

سأكرر مرة أخرى؛
هناك صيادلة بلا صيدليات، ولا تصاب الأدوية في خزائنهم بالضجر

هكذا أنتم أيها الشعراء، أيها الصيادون الذين لا يصطادون الأسماك الناعمة إلا ليقدموا لها مياهاً
أعذب وأصفى، أيها الصيادون الذين لا يضايقون القبرة إلا ليهيئوا لها دغلاً أوفر راحة ودعة
أيها الشعراء الذين زُودوا بالقليل من الجنون والكثير من الحكمة
إيها المحلقون وراء المغامرة الحقة على طريق الفكر
لكم وحدكم الحق في الكلام
بعض الناس يستولي على قمة إفرست، وبعضهم يستولي على أقحوانة، أو فكرة أجمل من سمكة
قوس قزح، فكرة أكثر شاعرية وسموًا من صورة جانبية مائلة لبلبل يهيج في ضوء القمر أحياناً
يهديها إلى صديقه "بيرو".
أما أنت يا صديقي الشاعر، فليس أمامك سوى المجازفة، المجازفة البطولية تستولي عليها، وبها تحقق
وجودك
لكل غاب مكتشفوه، أما أنت فلست إلا الفارس المخاطر الذي يطارد وعل الشمال البليد المتوحش
وعندما أقول يطارد، فأنا أعني أن يطرده من الغاب، ويفرض سيادة الغزلان
أنت المخاطر الذي لم يرتض سوى الملحمة البطولية زوجاً له
أنت كريستوف كولومبس الحس السليم
أنت متسلق قمم الصفاء، الغائص في أعماق الفكر الصحيح، وليس لك من رسالة سوى الانتقام
للغابات التي تحدثنا عنها
أنت إنسان في خدمة البشر
قبل أن يذهب "فوسيك"، طلب منا أن نسهر، أن نبقي يقظين. كانت السهرات في زمن يحترم الإنسان
فيه نفسه سهرات سلاح
أنت يا صديقي الشاعر أكبر من أن تكون طائفيًا، متحزبًا، ضيق الأفق. أنت تحتقر البلاداء، وإحتقارك
لهم يجعلك في يقظة دائمة.

* * *

أما أنا فإني للباقيات
الشاعر أكبر من أن يتحزب. إنه يحلق فوق وطنه مثل نسمة من نسيمات التحرير
نسمة وطنية ذات نشيد وطني
لا تدع الأصابع يغار بعضها من بعض. إن اليد بمجموع أصابعها هي التي تستأثر باهتمامي
فلأرفع قبضتي
ولتنتطق أسراب النحل.

مالك حداد
كليرمون فيران
نيسان 1956

يجب أن نقتل الليل

إذا، كنت تبحث عن الرائع النبيل
فلتصم أذنك عني
إني أفصح سرّ الزهرة التي انتهت على الحجر
أيها الشاعر السعيد الذي يستطيع أن يصمت
تبدو الكلمة الآن فرضاً عليّ
بلى، فرض أن أتكلم
تلخّ عليّ ملايين الذكريات
بل أكثر من ملايين
إني أدافع عن عطر الأزهار الذي ينتظر مني أن أبدعه
ولكنني في طائرتي اللعينة فريسة لليأس
لاحدود للحب
سيظل الحب أكبر وأغنى مهما أحببنا
إني أمضغ فكرتي مثل قطعة من الخشب
وحلمي؟ ياللمقبرة الهائلة التي ترافق الليل!
يجب أن نقتل الليل
يجب أن نقتله
لتنبتق الحياة من ورائه

إصغ إليّ، إنني أشعر برعدة الخوف
إنني أرى رفاقي صرعى
أرى قرية تباد فوق كل الشقاء الذي أثقلها
كل الشقاء الذي يستطيع العقل تصوره
أرى ذكريات ملوية كما تلوى المسامير
أرى أملنا محطماً مثل زجاج المطر
أرى الغزالة المذعورة التي
هتكت سرّ الخرافة
أرى الخراف الصريعة والرجال المختطفين.

وهناك
ما عساني أرى؟
هناك مصنع جهنم الذي يقيمه صانعو المغامرات السوداء
هناك نسغ الحياة الذي يواصلون قتله
هناك مذاق عادات غريبة تفرض بالقوة

هناك كل هذا
ورغم كل هذا نعيش
إنني أتمزق ضجراً
كلما تذكرت أنني بعيد عن الجزائر.

سنبدع تقاويم جديدة للزمن
سنصب الحياة كلمات في توابيت رفاقنا
سنجفف دموعنا بأكفان فقيرة
سنقول لأطفالنا الذين ذاقوا اليتيم ألف مرة:
ستنجبون أطفالاً يعرفون آباءهم
أطفالاً يستطيعون أن يقولوا:
وطني هو الإنسان

إنني أحسّ السجن في قلبي مهما تخطى الحدود
إنني أتمزق ضجراً
كلما تذكرت أنني بعيد عن الجزائر

بعد حين سننشد أعذب الأناشيد
البارود يبعث في نفسي الغثيان
إنني أؤثر السوسن حبيب آيار
فأيار يعيد إليّ دائماً ذكرى غلّة الذبيحة
وكل يوم يمرّ يحمل إليّ ذكريات جديدة
لم يمرّ يوم واحد بلا مأساة

في كل الدروب التي تفود إلى النهار
أبحث عن اسمي بين شواهد القبور دائماً
عجباً، كيف يفتح الماضي المرعب أبواباً لغدٍ جميل!
إنني أحلم بغدٍ كالأساطير

سأعطيكِ النهار الجميل

الشمس.. هل تريدين الشمس؟
هاهي ذي
تقدمي
إنني أبتسم لك يا قطني الصغيرة!

السماء زرقاء
والبحر يقصّ علينا حكاياته
وأنا أتجول في عينيك
الشمس.. هل تريدين الشمس؟
هاهي ذي
تقدمي
إنني أبتسم لك يا قطني الصغيرة!

للشمس عندي صباح يروقهها
سأعطيك النهار الجميل
أسأل الموجة ألا تغرق
علها تنقل إلى وطني
حبي العظيم

أيها الموسيقيون الجالسون على خشبة المسرح بلا موسيقى
تعزفونها
إنني أسمع أغنية لم أكتبها
لقد سرقْتُ الأغنية

إنني استخدم كلماتٍ تخرج من أفواه غريبة
إنني يتيم القلب
أحسّ هذا اليتيم كلما بدا موطن الفجر بعيداً عني
ما أفسى أن يكون الإنسان يتيم القلب!

بعد اليوم لن يغني العصفور الصغير
أجنحته تحترق بعيداً عن الشمس
والليل يبدأ .. بعيداً.. بعيداً عن الصباح
الكلاب تبكي في منفاها بكاءً وحشياً
أنا أحب البلبل
ولكنهم يريدون تعبئة أغانيه في اسطوانات
وحين أرى هذا، أشعر أن الغابات

سطا عليها اللصوص
أنا على يقين من هذا

أريد أن أبتسم للأغنية
التي تعلن رغم كل شيء
عن غضبة مغنيها.

(3)

أنا الكلمة الأخيرة في القصة الهائلة التي بدأت

لن ننسى شيئاً مما مرّ، لن نبدأ من الصفر
إنني أحتفظ بأنشودتي نقيّة في عينيّ
وأتابع المسير، لأنكر شيئاً من ماضيّ
أنا الكلمة الأخيرة في القصة الهائلة التي بدأتُ

بماذا يفيدنا التمييز بين السماء والأفق؟
الفصل بين الموسيقى والراقصين عسير
ما يزال البرنس الذي ارتداه أجدادي
البرنس الذي يتراءى أمامي في كل مكان
ما يزال دثاري
ما يزال استمرار الحياة في بيتي
أنا الكلمة الأخيرة في القصة الهائلة التي بدأتُ

من صحرائيّ اللاهبتين سأصنع أناشيدي
إنني أحتفظ بأنشودتي نقيّة في عينيّ
أنا المعلم في الحقيقة وأنا التلميذ

كم أتخيل أنني كنتُ راعياً ذات يوم
وعندها يلتمع في عينيّ هذا الصبر الطويل
صبر الفلاح وهو ينظر إلى يديه الصلبتين
فيرى فيهما تاريخ الوطن الذي سينبت البرتقال
كم أتخيل أنني كنتُ راعياً ذات يوم
وأني قطعتُ رغيفي الكبير
ووزعتُ التين
وهيأتُ لبناتي
زواجاً سعيداً
ما أجمل هذا !
أما الآن
فإلى البندقية
إلى العمل
أنا وابني البكر
كانت زوجتي أجمل نساء الوادي

لكلمة وطن عندنا طعم الأساطير

يدي داعبت قلب أشجار الزيتون
مقبض الفأس منطلق ملحمتنا
لقد رأيت جدّي "المقراني"
يلقي مسبحته جانباً ليتابع بنظره إنطلاق النسور
لكلمة وطن عندنا طعم الغضب

أبي .. يا أبي!
لماذا حرمتني
تلك الموسيقى المنسوجة من لحمي ودمي؟
إنظر إليّ
إلى ابنك
إبنك الذي يلَقّن أن يقول بلغة غريبة
تلك الكلمات الحلوة التي عرفها
عندما كان راعياً

يا إلهي..
ما أشد وطأة الظلام في عينيّ هذه الليلة
أماه ! .. يَمّة !
هل يمكن أن يكون اسمك "ما مير"؟
برنسي فقدتُ وبندقيتي وقلمي
وحملتُ اسماً أشد زيفاً من مظهري
يا إلهي !
ما أرهب هذا الليل.. وهل يجدي الصفير؟
إنه الرعب يملأ الأفق من حولك
أنت خائف.. أنت خائف.. أنت خائف
هنالك من يلاحقك دائماً كمرأة لا ترحم
زملأوك في المدرسة
الشوارع
السواقي
كل أولئك الذي تؤكد لهم في كل لحظة أنك فرنسي؛
" إنظروا جيداً إلى ثيابي
إلى لهجتي الفرنسية
إلى منزلي
أنا الذي يحمل مهنة زريّة من أصله.. من نسبه
أنا الذي يسخر من التاجر فيسميه تونسياً
أنا الذي يعرف أن اليهودي جندي جبان
أتسمونني جزائرياً !
لاتقولوا هذا

هذه شقيقتي لاتضع نقاباً على وجهها
ألم أحصل في المدرسة على الجوائز بالفرنسية
في الفرنسية.. في الفرنسية.. وباللغة الفرنسية!"
ياإلهي !
ماأشدّ وطأة الظلام في عينيّ هذه الليلة !
وأطلّ الثامن من أيار ذات يوم
دوري إذا أيتها الأرض
وزمجري يارعود
لقد خلّفت ماضيّ المظلم بجميع أخطائه
في قرارة قبري العميق

أطلّ الثامن من آذار ذات يوم
أحتاج الإنسان إلى دفع كل هذا الثمن لكي يفهم؟
أحتاج إلى كل هؤلاء المعلمين ليتلقى الدرس؟
وكل هؤلاء الموسيقيين ليحب الموسيقى؟
ذات يوم أطلّ الثامن من آذار

كما تفتقد المرأة المجد الكامل
إن لم تهينا عيون الأطفال
التي نرى فيها استمرار عيوننا
كما تفتقد الغابات أفواج العشاق
الذين يملأونها
ليقولوا للنسيم كم تحمينا أيها النسيم
كما يفتقد الشراع المركب الذي ينطلق
والمندبل الصغير الذي لاينسى أبداً
كما تفتقد العائلة فرداً منها
كنتُ أفقد أشياء كثيرة
كنتُ بحاجة إلى بستان لأزهاري
إلى عطر لأزهاري
كنتُ بحاجة إلى بستانيّ
شاهدتُ عيون رفاقي تقدح بالغضب
شاهدتُ عيون رفاقي تبللها الدموع
رفاقي ناسجي العلم الوطني الكبير
علم الجزائر
هاهو ذا ينتصب كالريح القوية
عالياً.. واسعاً.. كالتاريخ
إنه يجعلنا ننتقم لشعرنا الأبيض في سن العشرين

أه !
يجب أن تكون لدينا فضائل النحل
لنستحق العسل
ولنغني يارفاق.

(4)

مدريد لم تجف دموعها بعد، أعرف هذا،
لم تجف دماءها
وأعرف جيداً أن نصيباً ضخماً للشرف
يقع بالقرب من غرونوبل
أعرف أن سيئول فُتنت عيناها
أعرف جيداً مزارع الرز الدامية في الهند الصينية

والسمفونية الحمراء التي عُزفت لنواب مدغشقر
أعرف جيداً كيف يُنفى سلطانٌ، وكيف يُسجن شيوعيٌّ
ولكنني أعرف الآن جيداً
إننا نحتكر وحدنا كل الشقاء والآلام

إنني أحصي رفاقي
مات رفاقي
وأتوقف عن العدّ
حين أصل إلى النهاية في حساب رهيب
أتوقف عن العد عندما تتحوّل الكلماتُ
إلى أرقام.

(5)

ها أنا أصغي للأنشودة التي لن تأتي أبداً
قلبي يتيم فالس بطيء
يوم كنت تحبينني .. كنتُ ملك آيار
عاشق النسمة الواعدة اختار العاصفة

اخترتُ الابتسامة
لأطهر بكائي من عذاب الأحزان التي يقصونها عليّ
لأجعل الشقاء يطفو أخيراً على صفحة تيار
تيار يجري
وعليّنا خوضَ عبابه حتى النهاية

إنني أسمع من نهايات الزمن لحن قيثارة أندلسية
أنادي الشقاء لأمزق فكّيه
حين كان الجو طلقاً رائقاً.. كنتُ ملك أيار
غزالتي تشكو وحدتها القاتلة
في أعماق الصحراء

ها أنا أصغي للأنشودة التي لن تأتي أبداً
المطرُ يتساقط فوق الشمس التي تجفّ ابتسامتها
المطرُ يتساقط على يد الماضي
حين كنتُ ملك أيار
المطر يتساقط على حبي
حبي الذي لم يعد له ما يهمس به

(6)

لاحقيقة سوى الموسيقى والحب العظيم
أعرف أن في الحبّ وساوس لاحت لها
لأعرف الموسيقى، أحتاج صحراء تلو صحراء
لأعرف اللانهاية
لأحتاج سوى نظرة إلى عينيك

ليقفز العصفور كالمجنون حين يحط على الأرض
ولكن ليترفع قليلا عن التقاط الحب الذي يُنثر أمامه
عندئذ يصبح، هذا العصفور الأزرق بكل أوهامه،
يصبح أغنييتي التي أبدعتها منذ لحظات

في صباح يوم ضاحك، تعرفتُ على نشيدي
كان متعباً حزينا
كان يتغنى بالبنفسج
وهزت رأسها ثمرة توتٍ موافقة
وانطلق نشيدي
وجدتُ الصواب حين أضعتُ رشدي
وحينئذ ناديتُ:
الزجاجة انزلت في البحر
لترقص في ركن كالحلم
من يصيبه الدوار يعرف أن الصحراء
ينتابها هوس غريب لتري نفسها
شاطئا رمليا نديا
حينئذ أطلقت صوتي
كان عليّ أن أنادي
الهالة التي تحيط بي ليست إلا غيمة عابرة
وطائرتي ترقص وسط العيون
متسولة الشرر
باحثة عن نجمة الخلاص الساكنة على حافة الأفق البعيد.

(7)

الغريقُ يطفو فوق أمواج التيار
ناسجا من شعره سيقان نبات الغرب
لحلم يمضي
وهناك يقف العصفور وحيدا
يحرسه
ينقل روحه
إلى ركن حالم
حيث يستطيع الغرقى من أمثاله الغناء.

(8)

الآن أضعُ حداً للحيرة والضياع
وتبدأ الإنسانية بين ذراعيّ
الآن يبدأ تاريخي
حياتي الماضية كانت ما قبل تاريخي
لحبي مذاق أكوام ترقص
لنجمع البشر، سنسير عبر الألحان
يجب أن يُفسرَ لي
مجد الموت وعظمة الحياة

سأؤدي رسالتي
تلك هي مهمتي
إنني أغني عن قناعة ومبدأ
أغني، وأحبّ الغناء

إنني أمنح يوم عطلتي لخدم الشقاء
تعالوا أيها الصبية الصغار
سأبتكر قصة
سأقطف نجمة لكي أخط لكم كلمة

كان ياماكان
هناك في بلادي
كان هناك صبي
يشتهي بالوناً
يالرفيقي الصغير !
كانت له عينان كرويتان كالأرض
والآن بعد أن مات رفيقي
(قتلوه في السجن)
لم أعد أومن بكروية الأرض
حين أشاهد البالونات
سأؤدي رسالتي
وليس على الأرض إلا الإصغاء.

(9)

جئتُ كالأعصار
وقطرة قطرة أعود
كلما سرتُ أراني أبتعد
مبرراً حياة الأغبياء
يموت من يحيا

شاعر هنا
شاعر هناك
من الבלاهة أن يموت الإنسان
بعيداً عن قبره.

(10)

على تخوم الموهبة
يقوم موظف الجمارك بعمله
هناك فكرة تحتاز الحدود
وليس لديها ما تعلن عنه

يا للبعي على الورق الأنيق!
إني أحذرُك يا صديقتي
سيلقى التاريخُ في
قاذورات النسيان
بنفايات الأدب
والأبواق الصدئة.

(11)

أتذكر الطرقَ الزرقاءَ
كان البحرُ وادعاً
والجبلُ يحملُ ابتسامته الفضة على شفثيه
كانت يدكِ ترتعش كغم مطبق
كانت قبلنا لاهبة
والعنبُ يتورد
وكان شلالٌ من الشعر يبلى عينيّ

مايزال على الطريق نغم ماندولين
وعندما يغفو المساءُ في عينيّ
لأحلمُ أبداً

إنني أذوق طعمَ الفجر قوياً في هذا الشلال.

(12)

أُمِّي أبداً جميلة
إنني معها كل يوم
يسمونها بيجو
ولكن اسمها الحقيقي عربي

(13)

هاهم يمضون في الأسطورة
والأسطورة تفتح لهم ذراعيها

تحدّثتُ إليهم
لامستُ أيديهم
كان لهم أبناء
ولا يخلون من العيوب
كم كانوا يجيدون الابتسام عندما يخيم الليل

إنني التقى بهم مجدداً كلما اشتريتُ جريدة
كانوا أصدقائي

لم يكونوا مجرد كلمات
مجرد أرقام أو أسماء
كانوا الأيام الألف والسنين العشر من حياتي
الطعام الذي تقاسمناه
ولفافة الضجر
كانوا يعرفون أطفالي
كنتُ أهبهم قصائدي
كانت أُمي تحب قلوبهم الصافية
كانوا رفاقي
ما أكثر ما تحدثت إليهم !

إنهم يمضون في الأسطورة
والأسطورة تفتح لهم ذراعيها

والآن .. تجسّدوا روحاً كبيرة
أصبحوا وطني
لن أر رفيقي عامل المنجم بعد اليوم
كانت ابتسامته تضيء النظرة المرة في عينيه
لن أر رفيقي الجزّار
ولا رفيقي معلم المدرسة
إنني استميتهم عذراً
لبقائي بعدهم حيّاً
إنني أشدّ ينماً من ليلة بلا قمر

إنهم يمضون في الأسطورة
والأسطورة تفتح لهم ذراعيها.

(14)

على المنضدة المستديرة
كان المصباح الأحمر
وصورتك الجانبية
إلى قاعدة قدح

(15)

وتمتت الزهرة: أشعرُ بالضيق
أعيدوا إليّ مروجي
إنها زهرة الحرية

أشعر بالضجر من البيانو
قال الليلُ
أعيدوا إليّ غابتي
هي الموسيقى كلها

أشعر بالضيق، قالت كلمة أحبك
أتململ ضجراً على الورق
أعيدوا إليّ القبلات، فهي رسائلي

أكاد أختنق، قالت الصورة
ردوا إلى البسمة التي كانت تشرق بها عيناها

أتألم
أتألم ان أكون مرآة
قالت لي الصورة الحية

(16)

مات رفيقي في غمرة الأنغام
مات في حاكورة قمح
وأسفاه
كان رفيقي في زهرة الشباب
كان جزائرياً
كتب قصتي الجميلة
هو الذي كتبها
كانت كلماته أجمل من حاكورة قمح

أريد أن أقول شكراً
أنا موسيقيّ مادام صديقي يصنع الموسيقى
سأظلّ في وقفة الجندي المتأهب، المستعد
أمام الحلم الكبير الذي سنحققه
وأقول له.. شكراً

الآن بدأت أعرف الحشرة الضئيلة المختبئة
بين سنابل القمح
أيها الينبوع.. إثار له

إجعل الجرار الصغيرة تحسّ بالقرف
وأنت ياشقائق النعمان
ارتمي بين ذراعيه
قولي له: أصبحت قصيدة حاملة أيها الرفيق

إفرغ جرارك قطرة قطرة
واخزن البارود
إخزن البارود
يا قلبي

الموت والأسطورة ينهران على وطني كالمطر
سنبلّة واحدة تكفي لتغثني حقول القمح
ولحظة واحدة تكفي ليهبط الليل
وتكفي لحظة أيضاً.. ليولد النهار

الخبز
سنأكله
مع آلاف الوسوس
مع ألف حذر
رفيقي إنسان
إنسان يرقد في أسطورة

إبكي يا أمّاه
جدير بالدموع هذا الصغير الذي أصبح ابنك
منذ اهتدى إلى أن يناديك يا أمي !
باسم مواسم الحصاد دعاك أمه
ومن صدرك شرب طعم الضياء

على أسطورتني ينهمر المطر
أسطورتني تحسّ الألم في عينيها
وإذا ما تكاثرت عليها الغربان
فلأن الغربان بدأت تخشى الموت

هنيئاً لكم طعامكم أيها السادة !
لم يبلغ رفيقي الثلاثين
ذلك الرفيق المتحفز ذو النظرة النفاذة
من عادة الغربان أن تسرق القمح
هذا ما يعرفه الفلاح جيداً
الفلاح الذي يخشى على أخاديد أرضه في زمن البذار
ولكن الصقور تحصده
قلبي يعرف هذا أيضاً
قلبي الذي يخاف على أغانيه

يالللحم اللاهب في أرض الجزائر
ناسج العلم لم يكن سوى صانع قمح عندما خاض
الحرب الظالمة المتذرعة بكل الحجج لتبرير جريمتها
أراد أن يهزم الشتاء فمات في عز الصيف

إنني صاغ إلى الأنشودة التي تجلجل أبدأ
إنه صوت الفرح ذاك الذي يرنّ في أرض الجزائر
وجنود الصباح هؤلاء هم أطفال الحب العظيم
لقد رقدوا بين سنابل القمح ليعيشوا في ذاكرتنا

أرقصي يا شقائق النعمان
لقد مات رفيقي في غمرة الأنعام

(17)

وقوفاً أيها الرفاق
الجبلى على صواب
إنه الحل الوحيد

أصغوا إلى خطوات الموتى الثقيلة
ماذا تُسمى أيها الشبح؟
- أسمى جثة
كنت واحداً من الأحياء، وكانت لي بناتي
شربت الحليب
والماء
كما شربت الوهم

وقوفاً أيها الرفاق
الجبلى على صواب

ولاح لي حطام قلبي، حطام القباب
في قرانا
واليت أن أجدّ بناءها في أنشودة الأمل
أنا أكتب عن موتانا
وأسمعهم يقولون:
عويل المآتم مهد الأغنيات أحياناً
مهد الموسيقى ذاتها

أما الآن.. فالشقاء
وخطى الموتى الثقيلة
وحدهما سيكونان نغم الصباح
الشقاء الجزائري.. يا لجلال الشقاء !
إنه يعدّ أناشيد الغد المترع بالغناء
لوى الإنسان ذراعيه
إنه ينتحب في أعماق فرحه
ما أشدّ غبطة الموتى بالضحكات المقبلة !
إنهم يزرعون أغانيهم فوق البيوت المحترقة
السواقي دمهم
المحيط عيونهم
وقمح المجاعة أرسل لحنه الحزين

غنّ أيها الراعي
فالمشاعل رجال
ما أشدّ غبطة الموتى بالضحكات المقبلة !

وقوفاً أيها الرفاق
الجبلى على صواب

الموتى الذين تظللهم حمايتكم
لهم وحدهم السلطة
لهم وحدهم الحق
بأن يرسموا لنا طريق الحياة

أقامونا بعدهم
مثلما تقام الزهرة على الحجر الصامت
إنني أحمل أملي الوثاق بالنصر
أمل لا يتوسل ولا يستجدي

إنني واثق من الفرحة
سيكون الفرحة جزائرياً
فرح هذه القرية التي سيولد فيها أطفال

يذهبون إلى المدرسة
يا للفرح الغارق في الفرح !
مثل سعادة بكر

إفتراضي يقين
وقوفاً أيها الرفاق
الجبيل على صواب

ستملأ الأعراسُ والحلوى الربوع
سنكون كلنا وقوفاً
وسيرتاح الجبلُ، سيستسلم للنوم الهنيء
لن تكون المناديلُ لتجفيف الدموع
ولن يكون النسيجُ لصنع الأكفان

ذلك هو الفرح
أشدّ بساطة
من كلمة صباح الخير
في بساطة حياتنا اليومية تكمن العظمة والسمو
في بيتنا الذي سنبنيه
في بيتنا الذي سنجدد بناءه
ذلك هو الفرح
ذلك هو الفرح
يا بيتي
سيكون لك أم غداً.

(18)

وإذا كنتُ أحيا الآن
فإنني أحيا للعاصفة
أعني
لك
أنتِ

عندما يزدحم شارع سان ميشيل بالأقدام
جبهةً وذهاباً
فإنني أرثي لأصابع قدميَّ
أين منها طريقها الذي تحنّ إليه؟
طريقها الذي حُرم من ضوء النهار
طريقها حيث يحمي القمرُ الشاحب الثوار

ما أغبى باريس حين تعتقد أن وجودها يبرر كل شيء
إنني أبتسم للهرة وهي تضطهد الفئران
وأفكر بهذا الآله الرحيم الذي لم يفقه كل شيء
إنني أحذرُ الهرة كما أحذرُ الفئران
إنني أعشق تلك اللحظة التي تهبني الحياة
سأسمي تلك اللحظة
إصغوا إذاً
سدوا آذانكم جيداً
وافتحوا قلوبكم على اتساعها
سأسميها رفاقي الذين سأعانقهم قريباً

سأسميها داري حيث تنتظرني أمي بصبر نافد
سأسميها رفيقة القيثارات المحطمة
سأسميها..

الجزائر

لقد تغنيْتُ بهذا الاسم حين ولَّى الشتاء
لم أبدع شيئاً سوى أسلوب حياتي
إنه شعوري الكامل المترع بالحنين
إنه شعوري الكامل المترع باليقين
إليك يا بلادي سنجتاز الحصى البيضاء في كل قاع
إلى المخاضة سنغير أنهار الظلام
إلى المخاضة.. أسمعيني جيداً؟
على الشاطئ
ستجد المياه العريضة
السباحين
المنقذين

(19)

أحس بالتعاسة العميقة حين تُغشّ باقات الزهور
حين يعتري الأزهار الذبول
أو حين يبدو البستانيّ مثل حامل نعش
ولكن
ما أن يخطر للزهرة
أن تصب لعنائها على جامعي الحشائش
على صانعي العقاقير
حتى أشعر بالرضا
حتى أحسّ بالسرور
سرور عصفور تقدم للدخول في معهد موسيقى فرفضوه

(20)

كان كلاهما يحدّق في عيني الآخر
الجندي وخطيبته
وكانت عيون باريس مخضلة بالدموع
يا للجندي الصغير .. يبدو كالأزمة نشيد محطمة
كان ذاهباً إلى الحرب
المطر ينهمر على باريس
ومن عيني خطيبته
كلاهما يحدّق في عيني الآخر
الجندي ومصيره المحتوم.

(21)

أرأيت أشدّ سخفاً من لقبي في الحرب !
إنه الحمّامة
ياللمهزلة !

(22)

الخريفُ في قبضة يدي
كعصفور
وأنا أبكي عبر دموعك
كعصفور
ترى أتمرين في خاطر الصيف
حين كانت أشجار الصنوبر تتمايل
وكان البحر تحت قدمينا؟
أذكر الصيف ياترى تلك القبلة الباقية على الزمن؟
الخريف في قبضة يدي
- ماذا كنت تقول يا حبيبي؟
- عشرون قتيلًا
عشرون قتيلًا في قريتي

(23)

واختنق عامل من شمال أفريقيا
في كوخه
وانتهت اولى أناشيدي بزفرة موجعة
وانزلقت فاطمة في الرذيلة
التماساً لكسرة الخبز
إن تاريخاً كاملاً يمكن أن يسطر بمثل هذه الأحداث
الشقاء نفسه يتألب علينا
وددت لو أعرف اسم الشقاء

هذه السماء ليست إلا كفننا هنا
ولكنها في بلادي مشعلٌ يتقد
كيوم أحدٍ فقئت عيناه
كربيع منهوب دائماً
لم يمض يوم بلا مأساة
سمفونيتي ألفتها
من ألحان الشقاء

الشقاء نفسه يتألب علينا
وددت لو أعرف اسم الشقاء

كان لي رفيق
واختار المسكين أن يفقد رفيقه
رأيت سنابل القمح تحني هاماتها
رأيت حملاً نأ تحب الذئب
وغاضت ابتساماتي في سفر طويل
الشقاء نفسه يتألب علينا
وددت لو أعرف اسم الشقاء

يا لأيام الخميس التي أضعتها
في عينيّ الميتين
ربما كانت لي خطيبة في سيئول
لقد قيل لي، أيها الملون
كما يقال كلمة مجرم
ثم فقلوا عيون قيثارتي
الشقاء نفسه يتألب علينا
وددت لو أعرف اسم الشقاء

وبعثة
رأيت مدينتي
في مخاضها العظيم
أيها التاريخ
إذا قدر لك أن تنطلق من أرضنا
فلأن الشمس اختارت مهدها
في الشرق
الشقاء نفسه يتألب ضدنا
وددت لو أعرف اسم الشقاء

جاري الأثير دائماً
هو الجندي
الذي لم ير الفرح في حياته
الفرح الذي صنعه يده
أما العيد فلأنك الذين يعيشون في عيد دائم
الشقاء نفسه يتألب ضدنا
وددت لو أعرف اسم الشقاء

لأمي وللحمامة
اسم واحد
أمي التي لاتجفّ دموعها
ابيض شعرها وقسا
كقلوب رجال الدرك
ما أكثر الأغاني التي تعرفها !
الأغاني التي لاتردد إلا همساً
الشقاء نفسه يتألب علينا
وددت لو أعرف اسم الشقاء

إخبروني عن القبلة التي حُرمت منها
قولوا لي شيئاً عن هذه الصحراء
التي استمد منها أناشيدي
إخبروني عن غزالتي التي قتلوها
عن زهرتي التي حرموها من البستان
قولوا لي، ما الذي يبرر كل هذه الآثام؟
ما الذي يبرر مائة ألف حماقة؟
مائة ألف جريمة؟
قولوا لي، لماذا يعبّ المرعوبون كل هذه الخمرة؟
لماذا يرتعدون من الأسود السجينة
في منفاها؟
ولكن
قبل كل شيء أخبروني
كيف هي حال الجزائر؟

(24)

سأهيك الشاطيء الرملي الناعم
والبحر الغارق في غيبوبة
وهذا العصفور الذي ينموه
وبعدها، سأهيك قلبي
قلبي الذي لا يحسن القتال

حينما تعرّفتُ على قلبي
بدا لي ضائعاً غريباً
مثل صيني صغير
كانت الشمس تضحك صفراء شاحبة
حين بدأت يداك تصنع الكلمات لي.

(25)

وعاد السلم
ستقول الحمامة
دعوني وشأني
سأعود عصفورة شاعرة.

